الفصل الثالث

الغريزة والعقل

لقد وهبنا الله سبحانه وتعالى العقل وميزنا به عن الحيوانات.

لقد وهبنا العقل كى نستطيع أن نفكر به ونميز الخير من الشر. ونبتكر، ونسمو بأفكارنا، ويقودنا إلى حيث نشاء، ويقول المثل:

العقل السليم فى الجسم السليم:

والعقل. هو الذى يقوم بضبط الأفعال ضبطا إراديا بتدبير خاص، لغرض مقصود.

كما وهبنا الله أيضا الغريزة.. والغريزة كما نعلم قوة فطرية، تصدر عنها أفعال قهرية لغاية محدودة. والغرائز... كل نوع منها يجرى على منوال واحد، فقلما أدركت فيه تفاوتا واختلافا.

فأعمال العقل متخالفة، وأعمال الغريزة متشابهة. يظهر لك هذا الفرق واضحا عند مراقبة شؤون الناس فى تدبير مصالحهم، والافتنان فى مصانعهم والتحيل فى المنافسة الغلبة. ولا ترى مثل ذلك لدود القز فى صنع الحرير، ولا للنحل فى جمع رحيق الأزهار، ولا للخطاف فى المهاجرة.

وقد جعل بعض الباحثين الغريزة « الإلهام » خاصة بالحيوان، وجعل للعقل حبسا على الإنسان. ورأى آخرون أن عند الإنسان غرائز تزيد على ما عند الحيوان، وكرمه الله فمنحه العقل الذى به يصوغ الأحكام بالقياس على ما خبره بنفسه، وما

عرفه من غيره. ومال آخرون إلى أن الغريزة فى الحيوان ثابتة الكيان، وتتهذب فى الإنسان، ومنها إذ ذاك يتولد العقل.

الغريزة والعقل عند الإنسان قوتان منفصلتان، فتتولى الغريزة تدبير الجسم فى الطور الأول من الحياة، وبعد ذلك يقوم العقل مقامها تدريجيا حتى تتضاءل الغرائز وتسيطر القوى العاقلة، غير أن الغرائز حينئذ تبقى أثرا يدل على حالتها الأولى التى اشترك فيها الإنسان والحيوان. ويذهب الحكيم وليم جيمس إلى ضرورة وجود الغرائز فى تركيب الإنسان، ولو بعد استيفاء العقل حظه من الكمال، وإن نمو العقل لا يدل على أن الغرائز ضعفت وفنيت، بل يدل على أنها تهذبت ليتسنى لها مزاولة الأمور وتدبير للشؤون. وقد اعتد بهذا الرأى الكثيرون من المربّين.

الأفعال المنعكسة والغريزية والعقلية:

الأفعال المنعكسة مصدرها النخاع الشوكي، ويهيجها المؤثر الخارجى، كما إذا حككت قدم نائم فإنها تنسحب من مركز التأثير وقد حققت التجارب أن الضفدعة إذ جرد مخها، وضغط أحد جوانبها، فإن قدمها المؤخرة التى فى جانب العضو الواقع عليه تأثير الضغط تتحرك لمعارضة المؤثر. ومن هذا النوع بكاء الطفل عقب الولادة عندما يستنشق الهواء. ومنه العطس والسعال والتنهد والتثاؤب وطرفة العين.

أما الأفعال الغريزية فمجموع أفعال منعكسة، على ما حققه الحكيم الإنجليزى « هربرت سبنسر ». فإن غريزة الهرب من العدو مثلا تتضمن عدم اطمئنان النفس، وخوف البطش، ودهشة الفكر، وغليان الدم، واضطراب الأعصاب، وسرعة التنفس.

أما الأفعال العقلية فمصدرها المخ. فالحواس تنفعل بالأشياء. فترسل أثر انفعالها إلى المخ من طريق أعصاب الحس، وهنا يبتدئ الإدراك ثم الوجدان. وبعد ذلك يهبط الإذن إلى أعصاب الحركة فالعضلات لتنفيذ الحكم دون مانع يعترضه،

ما دام الجسم سليم الأعضاء، قادرا على الحركة، بجردا من قيود الاستعباد، مسوقا بدافع من الشوق، وإن يكن دقيقا كما هو فى الأفعال الغريزية، فإن لها حالات نفسية كحالات الأفعال العقلية. ومن هذا الشوق ما يشاهد عند القط والكلب من محبة الوطن. ومنه إشفاق الدجاجة على أفراخها. فتحميها بجناحيها خوفا عليها من تأثير الجو. ومنه لذة الظفر على العدو والنكاية به، ولو تكبد الشخص فى سبيل إرهاقه ما لا طاقة له به من التعب. ومنه الميل إلى حفظ النوع عند الأم التى لا يغيب عنها ما تلاقيه من الآلام فى الإرضاع والتربية وغيرهما. ويشاهد مثل ذلك عند الدجاجة الحاضنة لبيضها، فإنها لا تنفك ذابلة الجسم مضطربة الأعصاب، وإذا حيل بينها وبين بيضها تثور وتغضب. فهذا كله يدل على أن الوجدان عامل كبير لتحقيق الأعمال وأن الجسم فى سبيل تحقيق مطالب الغريزة لا يبالى أن يحارب الكوارث ويتخطى الصعاب فى سبيل أن يحقق أهدافه وأمانيه.

obeikandl.com